البناء الوطنى ومسئولية الحكومة والشعب

د. سيد نوفل

ولدت على عتبة الحرب العالمية الأولى .. ونشأت فى الأزمات الوطنية والدولية المتلاحقة عشرين عاما .. وجمعت بين العمل والدراسات العليا فى اتون الحرب العالمية الثانية .. وسعدت بالدكتوراه فى نهاية الحرب وبين تباشير السلام .. ولكنى لم البث أن استغرقت فى شقاء طويل .. فعايشت ثلاث حروب عربية فاشلة وما بينها : حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و١٩٦٧ .. ثم حرب الاستنزاف لمصر وإسرائيل معا عام ١٩٦٩ .. وأخيرا سعدت بحربنا الأولى الناجحة فى القرن العشرين : حرب ١٩٧٣ ، وبانتصارات السلام منذ عام ١٩٧٧ ..

وإنى لأسعد اليوم ببداية عهد البناء الوطنى المصرى .. كما أسعد ببشائر التحول العربى الشامل نحو الغد الأفضل .. وفى مقدمة هذه البشائر تصريحات الأمير فهد بن عبد العزيز الإيجابية ، ومناورات مسئولين سعوديين السلمية ، وعزلة حكومة واشنطن معاناتها باستقالة عزيز فايسمان بعد موسى ديان .. أما أعمال الاحتلال الإسرائيلى العصبية المتصاعدة ، والموقف الرجعى فى مفاوضات الحكم الذاتى ، فهى من آيات النصر القريب للسلام العادل الشامل ..

ومستقبل التعاون العربى الأفضل .. قد رأيت فيه ولا أزال منذ عامين ونصف عام .. منذ نشأت حركة الرافضين الصامدين بقيادة الاتحاد السوفيتى ، وأدانته مصر الثبات وحافظ الأسد .. وأعلنت سياستنا المصرية فى خريف ١٩٧٧ .. ثم ظلت تبدد حتى تفاقمت أخطارها .. ثم أخذت تتبدد حتى أذنت بالأفول فى هذا الربيع ..

وهذا كله أقصر حتى القدر فخامة المسئولية الوطنية والقومية فى بداية عهد السلام ، وعظمة الواجب الذهنى والحكومى فى المرحلة المصرية العربية الجديدة ..

وعلى طول السبعينات ، ناضلت مصر فى جبهات ثلاث متوازية متكاملة : جبهات التحرير والديموقراطية والتنمية .. فحققت فى التحرير الإنجازات التاريخية ، وأرست قواعد السلام الشامل للمنطقة كلها .. وأخذت ترفع قواعد الديموقراطية فى عطر متصاعد .. كما أخذت تعرف نفسها وتكتشف طاقاتها ومقدراتها وتعبر أراضيها وتشكل مرافق حياتها .. ولقد أتى ذلك فى نمط أقرب ما يكون إلى السرعة والفجاءة .. فأرهق البعض ، فى مصر وفى سائر العالم العربى ، وعجزوا عن متابعته وملاحقته ، وافتقدوا المقدرة على التحول والتطور ..

■ ولقد بدأت مصر الآن المرحلة الكبرى التى استهدفتها مراحل السبعينات التاريخية : مرحلة البناء الوطنى .. وليس من شك أن العامل البشرى أقوى دعائم النهضة ، وأن لكل عهد دولة ورجالا .. وبأتى القانون دائما قبل القانون ، والمنفذ قبل المشرع .. وقيادات الصخب بشعار الحرب ، والتكتل حول المصالح الذاتية المتبادلة ، والاعتماد على الطغيان فى الحكم ، والركون إلى الجمود فى مجال التنمية ، هذه القيادات لا تصلح لعهد السلام

كان دور بنك مصر ورجاله رعاية فتحت حرب دورا مرموقا فى البناء الاقتصادى

والحرية والتنمية .. وليس من الممكن للإنسان أن يتشكل استعداده وممارساته ، وأن يتبدل تبديلا بين عشية وضحاها ..

وقد ظهر أثر ذلك فى قصور بعض الممارسات الديموقراطية على مختلف الجبهات .. فبعض الكتاب ورجال الإعلام لا يتجددون .. ويبقى الكثيرون منهم على الدرب القديم ، ولا يرتفعون إلى مستوى الحاضر فى معالجة قضايا السلام والديموقراطية والتنمية .. ويسيء جمع الأسلوب الشخصى فى معالجة الشئون العامة ..

ومن ذلك ما وقع حين قدمت بعض الاستجوابات إلى الحكومة السابقة .. والاستجواب حق مقرر فى الدستور وفى القوانين المكملة له .. لكن البعض رد بحملة على أصحاب الاستجوابات ، واتهامهم بمختلف الاتهامات .. وبدل فى حكمة مجلس الشعب ودراساته ومناقشاته

وظل بعض العاملين فى الحقل السياسى يعتبرون فى ممارسة الديموقراطية ، ويمارسون العمل السياسى الحزبى بأسلوب الأوامر والنواهى الوظيفية التقليدية .. وتحدث المؤيدون والمعارضون عن الانضباط بوصفه قاعدة أساسية للنظام السياسى الحزبى .. وهو أمر لم يرد قط فى أى نظام حزبى ديموقراطى .. فأساس الحزبية الديموقراطية هو الحرية والالتزام معا .. الحرية فى إبداء الرأى والمناقشة ، والالتزام برأى الأغلبية أو التخلى عن الحزب إلى حزب آخر أو الاستقلال عن الأحزاب جميعا ..

وإسوقف النظر مسلك بعض المعارضين فى التشهير والتجسيم والأخذ بمبدأ المعارضة الشاملة ، والتماس القوة من بعض الأوساط الخارجية المعادية ، والقديم المادة الإعلامية المشوهة لها .. وذلك أمر لا يتفق والنهج الوطنى المستقيم ، ولا يساير الانتصارات المصرية المعاصرة .. كما أن الدراسة الشاملة الواعية المتعمقة للموضوعات لا تسنده ولا تركيه

لكن ذلك كله أمر طبيعى فى شعب ظل محروما من الديموقراطية ربع قرن من الزمان .. كما ظل يمارس الديموقراطية المفوضة طوال الثلاثين عاما من قبل ..

ولعل ذلك هو الذى دفع القيادة المصرية إلى الأخذ بأسلوب التدرج فى بناء الممارسة الديموقراطية ، والانتقال بها من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى مرة بعد أخرى ..

والمؤكد لا ينال من الإنجاز الكبير الذى تحقق فى سبيل البناء الديموقراطى السليم .. وهو بناء يطرد تكامله ، ولابد أن يبلغ أقصى غاياته ..

□ □ □

■ وفى هذا المجال لا تواجه مصر ما تواجهه البلاد النامية من أخذ خطير ، وهو نقص القيادات الوطنية الصالحة .. فالقيادات المصرية الصالحة موفورة .. ومن اليسير استدعاؤها ما تحور المستطعون من صفحة أنفسهم ، وصدقت نيتهم ، وكافحوا حرص العاجزين المتكلين على التمكين لبقائهم ، وخيروا الحق لوجه الحق والوطن وحدهما ..

ومصر فى هذا المجال لا تبنى من فراغ .. إنما تصل ما انقطع ، وتشكل ما بدأته .. وتسعيد واقعا قديما وحديثا .. استقرت أصالته ونوطدت .. ونوارثها الأبناء عن الآباء .. ولولا هذه الأسباب الثابتة والطريقة ما استطاعت مصر أن تحقق فى السبعينات ما حققت ..

الأمير فهد بن عبد العزيز تصريحات أخيرة

سعاة موسى دياز وبعد استقلال فلسطين سنة عزة حكومة مصر

والقوى دليل على ذلك تأسيسات مصر الرائدة في عهود الاستعمار الأسبق ابتداء من العهد القديم حتى الاستعمار البريطاني الغرب

□ □ □

وفي مطلع القرن التاسع عشر استطاعت مصر إحياء الغة العربية وتطويرها بحيث تستوعب النهضة الأوروبية الحديثة . وانشأت مدارس الطب والعلوم العصرية والترجمة لمختلف اللغات الأجنبية . كما أقامت صناعات مدنية وعسكرية هيأت الدولة العثمانية التي كانت في مقدمة القوى العالمية لذلك العهد وفتحت أبواب معاهدها للأشقاء العرب في أرجاء وطننا الكبير .

وبعد طوال الثلاثينات للقرن التاسع عشر ما أطلق عليه الاستعماريون الأوروبيون : « الإمبراطورية العربية » تجمع مع مصر بلاد المشرق العربي وطائفة من البلاد الأفريقية العربية ولولا تحالف الاستعمار الغربي مع العثمانيين ، وعمل العالم العربي عن مصر ، لما عانى وطننا الكبير ما عاناه طوال قرن من الزمان

* * *

وكان العالم ، حتى نهاية الثلاثينات للقرن العشرين ، عالمين : قديما وجديدا . وكان العالم القديم يضم أوربا وآسيا وأوروبا . وكان العالم الأسبق الأوربي تحكمه بريطانيا ومعها معظم الدول الأوروبية الأخرى . وكان العالم الجديد يضم أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية . وقد اكتشفها أبناء العالم القديم وأخذوا يهاجرون إليها طوال ثلاثة قرون من قبل ذلك . ولا يزالون حتى هذه الأيام . وكان العالم القديم ثلاثين : شرقا وغربا . وكان الشرق هو البلاد الجنوبية الآسيوية والأفريقية . وكان الغرب هو البلاد الأوروبية . وكما في مصر . في بداية عهد الاستقلال والكشف عن حضارتنا الرائدة القديمة . تطلع في عقد إلى الإحياء الوطني . وفي بدل من عوالم المصريين الوجود العسكري البريطاني في أرجاء البلاد أولا . وفي قاعدة القناة أخيرا .

■ وكما تتمثل بالبابان ، البلد الشرق الذي أبطل قوله الشاعر الاستعماري البريطاني : روديارد كبلنج : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . فتفوق على الغرب وسبقه في مختلف الميادين . وكما نطالع في المرحلة الابتدائية كتابا جديدا بالعربية والإنجليزية معا : عن نهضة أرض الزاكين . عنوانه : « اليابان أرض الشمس المشرقة » .

وبالرغم . منذ تلك الأيام . أفضل مصير في الشرق الأوسط . اليابان في الشرق الأقصى . وهو تظل له أسبابه ودواعيه الدائمة . فلكل من البلدين إمكاناته الشرقية الوفيرة . وفي مقدمتها ملكات الابتكار والعمل والنظام والتفوق . وهي التي كانت عليها نهضة اليابان المعاصرة . بل إن مصر لديها من ميراث الماضي العريق . ومن النمط والمعادن وإمكانات المزيد منها . ومن المكان الوسيط الإستراتيجي العالمي . لديها من ذلك كله ما ليس لليابان شيء من مثله .

وقاومت السيطرة البريطانية الاتجاه المصري الوطني إلى النهضة فحرفت مصادر التاريخ والجغرافيا الطبيعية والسياسية . وأعلنت تؤكد أن جو مصر وطبيعتها لا يصلحان للصناعة الحديثة . وأن مصر بلد زراعي تقليدي . يكفيه فخرا أنه موطن الذهب الأبيض : القطن . قبل عهد الذهب الأسود النفط .

واستطاعت السيطرة البريطانية أن تجمد حركات النهضة الاقتصادية والصناعية والاجتماعية في النطاق الحكومي . وشغلت الأحزاب بالصراع على الحكم للحكم لا للتقدم .

لكن الشعب المصري . بقيادة طليعية من أبنائه . وضع القواعد الشعبية رغم الوسائل المتدرية والعوامل المعاوقة . وكان دور بنك مصر ورجال رواده طلعت حرب . دورا مرموقا في البناء المالي والنهضة الصناعية والفنية . وفي نهضة شملت الأهالي الحرفية ومصانع النسيج المتطورة والمعادن والأصداف . كما شملت الحقول والمصانع . وكذلك استطاعت شركات اليونسة الحديدية بقيادة أحمد عبود . أن تبني أسطول مصر التجاري . وأن تؤسس مصنع الغزل الذي أصبح من أسس الصناعة الحربية المصرية المعاصرة . وكان دورها . ودور غيرها في المجال الاقتصادي . يكمل أدوار سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وطلعت حرب ومن شعراوي ومن الأهم في المجال السياسي

ولو أن الشعب المصري استجاب لضغوط البريطانية المحرفة لحركته وتوده . لخلت بالحلفاء كارثة . أو واجهوا على الأقل مصاعب في الحرب العالمية الثانية تكلفهم الكثير لتخطيها .

فقد ساعدت مصر الحلفاء مساعدة مذكورة في المقاومة العسكرية . وعلى أرض مصر تقررت نهاية النازية . وفي معركة العلمين على مشارف الإسكندرية . سجل الحلفاء انتصارهم الأول الحاسم في مسيرة الحرب . لكن المساعدة التي لا تقدر بثمن هي تزويد جنود الحلفاء المتجمعين في مصر وشمال أفريقيا . بالأغذية المصرية من الملابس والأقمشة ومختلف الأدوات . وقد تقدمت فيها الصناعة المصرية الشعبية . وتوافر إنتاجها على كره من بريطانيا العظمى التي كانت تحكم ثلاثة أرباع المساحة العالمية وخمسي سكان المعمورة .

□ □ □

■ أما تجاربنا القديمة في الشورى والديموقراطية . فتعود أصولها إلى العهد القديم . كما سجلت تقدما في مختلف العهود حتى نهاية القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة للقرن العشرين . ولم يستطع الاحتلال البريطاني أن يقضي عليها وإن استطاع تعطيل مسيرتها .

وبعد . فهذا مدخل إلى أحاديث البناء الوطني ومسئولية مصر الحكومية والشعبية في العهد الجديد . أما هذه الأحاديث فأرجو أن تتصل وتتوالى .